



مركز بروكنجز الدوحة
BROOKINGS DOHA CENTER

موجز السياسة

ديسمبر 2017

احتواء الميليشيات الشيعية: المعركة من أجل الاستقرار في العراق

رانج علاء الدين

احتواء الميليشيات الشيعية: المعركة من أجل الاستقرار في العراق*

رانج علاء الدين

*كُتبت النسخة الأصلية لهذا البحث باللغة الإنجليزية وهذه ترجمة للنسخة الإنجليزية.
لا بد من الإشارة إلى أن الرسوم البيانية في هذه الورقة متوفرة باللغة الإنجليزية فقط.

BROOKINGS ملحة عن بروكنجز

إنّ معهد بروكنجز هو مؤسسة غير ربحية تقدّم بحوثاً وحلولاً سياسية مستقلة. يهدف المعهد إلى إجراء بحوث عالية الجودة ومستقلة يستند إليها لتقديم توصيات عملية ومبتكرة لصناع السياسات والعامّة. تعود الاستنتاجات والتوصيات الموجودة في كافة منشورات بروكنجز إلى مؤلّفيها وحدهم، ولا تعكس وجهات نظر المعهد أو إدارته أو الخبراء الآخرين.

يعترف معهد بروكنجز بأن القيمة التي يقدّمها إلى داعميه تكمن في التزامه المطلق بالجودة والاستقلالية والتأثير. كما وأنّ الأنشطة التي تدعمها الجهات المانحة تعكس هذا الالتزام، علماً بأنّ الهبات لا تحدّد بأي شكلٍ من الأشكال التحليلات والتوصيات.

حقوق النشر محفوظة © 2017

معهد بروكنجز

1775 طريق ماساشوستس، شمال غرب

واشنطن العاصمة، 20036 الولايات المتحدة

www.brookings.edu

مركز بروكنجز الدوحة

الساحة 34، بناية 36، الخليج الغربي، الدوحة، قطر

<http://www.brookings.edu/doha>

احتواء الميليشيات الشيعية: المعركة من أجل الاستقرار في العراق

رانج علاء الدين¹

هذه المجموعات في الماضي قوات التحالف الغربي والجيش العراقي على حدٍ سواء. وعلاوة على الخطابات الطائفية التي تعتمدها هذه الميليشيات والدعم الإيراني الكبير لها، لقد فاقمت حدّة التوتّرات الطائفية في العراق بين الشيعة والسنة العرب، الأمر الذي استغلته مجموعات مقاتلة مثل داعش لزيادة عديدها. وقد شغلت الميليشيات الشيعية أيضاً بالّ فئاتٍ أخرى من المجتمع العراقي، من بينها الأكراد، الذين اشتبكوا مع الميليشيات في سلسلةٍ من المناوشات في أراضٍ مهمّةٍ مُتنازع عليها، بالإضافة إلى مكوّنات المجتمع الشيعي التي ترفض أن يخضع العراق لمجموعات مسلّحة لا تخضع للمساءلة.

وانتقد سياسيون إصلاحيون، بمن فيهم رئيس الوزراء حيدر العبادي، الميليشيات التي تعمل بصورةٍ مستقلة عن الدولة وطلبوا منهم نزع سلاحهم. بيد أنّ هذه المطالب لاقت معاندة شرسة من الفصائل الميليشيائية التي هدّدت بإعادة تنظيم نفسها بشكلٍ مستقل إذا تمّ حلّ قوّة الحشد الشعبي.³ ويُعدّ نزع سلاح الميليشيات الشيعية وتسريح عناصرها مسألة صعبة ومعقّدة، ليس بسبب أعدادها الكبيرة واستقلاليتها ومواردها المالية وأسلحتها فحسب، بل أيضاً بسبب قواعدها الداعمة الناجمة عن تداخلاتها وتفاعلاتها الكثيفة مع الدولة والمجتمع العراقيين.

وما يزيد من صعوبة التحديّ أنّ الميليشيات الشيعية المتحالفة مع إيران قد سبق أن رسّخت نفسها نسجاً مشابهاً لحزب الله في لبنان، بعد أن أفسح لها في المجال للقيام بذلك نتيجةً للهاشاشة التي شابت كلّاً من الدولة والمجتمع العراقيين في العقد المنصرم. بمعنى آخر، اعتبرت الميليشيات نفسها حركات ثقافية اجتماعية ذات ذراع تُعنى بالرعاية الاجتماعية وذراع عسكرية تعمل بصورةٍ مستقلة عن الدولة. في المقابل، لم تحصّل هذه الميليشيات بعد القوّة والسلطة اللتين يملكهما نظيرها اللبناني. زد على ذلك أنّ قوّة الحشد الشعبي لم تصبح مؤسسة ضمن الدولة العراقية سوى مؤخراً، وهي تنشط بالتوازي مع قوّة عسكرية عراقيةٍ أضعف منها بكثير، الأمر الذي قد يدعو العراق إلى تحويل

ها قد اكتمل تحرير الموصل. ومن المستبعد أن يحكم ما يُعرف بتنظيم داعش مساحات واسعة من الأراضي أو يسيطر عليها في أيّ وقتٍ قريب. ومع أنّ الوضع يدعو للاحتفال، لا تعني نهاية "الخلافة" نهايةً داعش والقتال في العراق. وحتى لا يضيع عناء تحرير الموصل سدى، ينبغي على الحكومة العراقية وحلفائها أن يأخذوا على عاتقهم التحديّ الأكثر صعوبة والطويل الأمد، ألا وهو إعادة بناء الدولة ومصالحه مجتمعاتها وفصائلها السياسية. في هذا الإطار يبرز تحدّيّ قد يقف عثرة أمام هذه الجهود، وهو بروز الميليشيات الشيعية التي قد تستفيد قريباً من قاعدتها الشعبية لتغيير الخارطة السياسية في الدولة بشكلٍ جذري.

لقد تجنّد عددٌ كبير من الميليشيات الشيعية العراقية ردّاً على فتوى آية الله العظمى السيّد علي السيستاني التي دعت جميع العراقيين اللاتقيين صحياً إلى الدفاع عن بلادهم حينما انهار الجيش العراقي وسقطت الموصل في قبضة تنظيم داعش في يونيو 2014. تجاوباً مع ذلك، تأسّس تنظيمٌ ميليشيائي عُرف باسم قوّة الحشد الشعبي. ظاهرياً، تشكّل قوّة الحشد الشعبي تنظيمياً يعمل بإذن من الدولة ويأمر للحكومة الاتحادية، لكنه على الأرض يخضع لسيطرة ميليشيات متحالفة مع إيران وناشطة منذ فترةٍ على الساحة، مثل عصائب أهل الحقّ وكتائب حزب الله وكتائب سيّد الشهداء ومنظمة بدر. وتكوّن هذه الجهات رأس الحربة الفاعلة بالنسبة لقوّة الحشد الشعبي وتتبع قائدها الفعلي هادي العامري (زعيم منظمة بدر) ونائبه أبو هادي المهندس (زعيم كتائب حزب الله). وقد نشطت هذه التنظيمات بشكلٍ مستقل في خلال العقد المنصرم بفضل الموارد الهائلة التي يقدّمها رعاتها في طهران ودعمهم الكبير لها. كما أنّها استغلّت دعوة السيستاني إلى القتال للمحافظة على وجودها وتشريعه وترسيخه.

لقد اتّهمت المنظمات الدولية الميليشيات الشيعية في العراق بارتكاب فظائع طائفية وانتهاك لحقوق الإنسان.² وقد حارب الكثير من

¹ رانج علاء الدين هو زميل زائر في مركز بروكنجز الدوحة. تركّز أبحاثه على الميليشيات في العراق وسوريا، والحوكمة، وبناء الدولة، بالإضافة إلى إعادة الإعمار في مرحلة ما بعد الصراع في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. ويؤدّ المؤلف أن يشكر عادل عبد الغفار ونادر قباني وفراس مصري على دعمهم وآرائهم القيّمة. كما يؤدّ أن يعرب عن امتنانه للدعم الذي تلقاه من فريق الاتصالات، ولا سيما بهاء عمران وسمية عطية وفرانسواز فريفر.

² راجع مثلاً منظمة هيومن رايتس ووتش، "Iraq: Ban Abusive Militias from Mosul Operation," July 31, 2016, <https://www.hrw.org/news/2016/07/31/iraq-ban-abusive-militias-mosul-operation>; Jeffrey Gettleman, "Bound, Blindfolded and Dead: The Face of Revenge in Baghdad," New York Times, March 26, 2006.

³ United States Institute of Peace, "Iraqi Prime Minister Abadi on U.S. Ties, War with ISIS," March 20, 2017, <https://www.usip.org/events/iraqi-prime-minister-abadi-us-ties-war-isis>; "Iraqi PM Haider al-Abadi Compares Shiite Militias to ISIS: We Did Not Fight the Baath Regime Only to be Ruled by Gangs," MEMRI TV, May 20, 2017, <https://www.memri.org/tv/iraqi-pm-abadi-slams-shiite-militias>; Hayder al-Khoei, Twitter Post, 8 July 2017, https://twitter.com/Hayder_alKhoei/status/883461859717894145.

قوات الحشد الشعبي إلى نسخة عراقية عن حرس الثورة الإسلامي الإيراني. من هذا المنطلق، لم يفت الأوان بعد لحل مشكلة الميليشيات الشيعية المستقلة أو على الأقل احتوائها في السنوات القادمة.

ففي الماضي هُمّشت الميليشيات الشيعية العراقية بعد أن غدت الدولة العراقية ومؤسساتها أكثر فعالية، ولا سيما قواتها المسلحة. ومع دعم عسكري أمريكي كبير، عرف العراق استقراراً بين العامين 2008 و2011، فأصبحت الميليشيات الشيعية قوة لا داعي لها، وانثقت بعدئذ لخروجها عن القانون عموماً ولانتهاكها حقوق الإنسان. وعوقبت الكيانات المتحالفة مع إيران في الانتخابات الوطنية والإقليمية في العامين 2009 و2010. لذلك، فإن بروز الميليشيات الشيعية (ورعاتها الإيرانيين) ليس مسألة عصية عن التغيير، لكن عكس قوتها البارزة مرة أخرى يتطلب مقارنة متكاملة وتقديراً أكبر لشبكة العلاقات المعقدة بين الأفراد والمنظمات التي ترسم معالم المجتمع الشيعي في العراق. من هذا المنطلق، يدعو موجز السياسة هذا إلى وضع استراتيجية ثلاثية المسارات تركز على مساعدة العراقيين على تضييق المساحة التي تنشط فيها الميليشيات الشيعية من خلال تأسيس بيئة وثقافة من المساواة.

أولاً، ينبغي على الولايات المتحدة أن تقطع مواردها عن الدولة العراقية، ولا سيما طبقتها السياسية، وأن تعيد ترتيب سياساتها إزاء الحركات المجتمعية الأساسية في المجتمع الشيعي. فضلاً عن ذلك، ينبغي عليها أن تمكّن الميليشيات والعشائر والشخصيات الدينية الداعمة للدولة التي تتميز تحالفاتها السياسية والأيدولوجية، فضلاً عن تفاعلاتها وخطاباتها اليومية، بقيم تعددية وعدائية تجاه التدخل الإيراني. وحتى الآن، ما زال صانعو السياسات يسيئون فهم تلك الجهات الفاعلة ولا يقدّرونها، غير أنّ لها نفوذاً وسلطة معنوية واسعين في المجتمع الشيعي ينبغي عليهم الاستفادة منها.

ثانياً، ينبغي على الولايات المتحدة أن تستغل نفوذها لتحصر على أن توجّه الموارد الدولية، وليس بالضرورة الموارد الأمريكية فحسب، إلى المنظمات غير الحكومية والمنظمات الإنسانية والجهات الفاعلة في المجتمع المدني في العراق، فهذه المنظمات قادرةٌ وصولاً ومصداقية أكبر من المنظمات الدولية. وهذه الجهات الفاعلة المحلية في وضع أفضل لحث المجموعات المسلحة على احترام حقوق الإنسان واعتماد القوانين الدولية الأساسية، لكنها لم تحظ بالتمويل الكافي، وتبقى عرضة لأن تصبح واجهات سياسية للنخبة الفاسدة.⁴

ونهايةً، قد تتحلّى الميليشيات الشيعية بخبرة في ساحة المعركة، لكنها غير مجهّزة كما يلزم للمشاركة في الحوكمة والإدارة. وفي حال فشلت

الفصائل الميليشياوية الشيعية في فرض الأمن وتأمين الخدمات للمجتمعات المحلية، تضعف قاعدتها الشيعية، كما حصل في الماضي. وعندها ينبغي على المؤسسات الأخرى أن تستغل الفرصة وتجد بديلاً لناخبها. ويتطلب ذلك مساعدة الحكومة الاتحادية على إنشاء مؤسسات تعددية غير طائفية، والاستثمار أكثر في سياسيين توافقيين منفتحين، مثل رئيس الوزراء حيدر العبادي. وبتقوية الجيش، مثل القوات الخاصة العراقية، وهي نخبة عسكرية خاضعة لتدريب أمريكي ومعروفة باسم الفرقة الذهبية، يمكن للولايات المتحدة أن تضمن أيضاً ألا تصبح القوات المسلحة التقليدية العراقية قوة تابعة، مما يقلص مساحة عمل الميليشيات المتحالفة مع إيران.

الناشطون الشيعة في أمس هم جزء من ميليشيات اليوم

على عكس النظرة الإحيائية الإسلامية والعالمية والفكرية التي تحلّى بها جيل الناشطين الشيعة الأقدم في العراق، رسمت فترة العنف والبؤس في التسعينيات معالم الذاكرة الجماعية والوعي السياسي لميليشيات اليوم. فمع ازدياد قساوة النظام البعثي في خلال مدة ولايته، ازداد تعصب الناشطين الشيعة العراقيين. وأفضى قمع النظام البعثي الظالم للثورة الشيعية في العام 1991 إلى قتل منظم عشرات الآلاف من الشيعة، ودُمّرت أضرحة الشيعة ومراكز تعليمهم، أو ما يُعرف بالحوزات، وأبيدت مجتمعاتهم. وبحسب شهود عيان، كُتبت على الدبّابات عبارة "لا شيعة بعد اليوم"، وعُلّق الناس على أعمدة الكهرباء، وجرّت الدبّابات أجسامهم في الطرقات.⁵ وتلا الثورة فقر مدقع وقمع قاس. فبرز من هذه البيئة محمد صادق الصدر، مؤسس التيار الصدري الذي يُعتبر اليوم، بقيادة ابنه مقتدى، الحركة السياسية الاجتماعية الأقوى في العراق. فقد حرّك صادق الصدر الطبقات الدنيا الشيعية وأمن لها منفذاً للتعبير عن تطلّعاتها الاقتصادية والسياسية. والواقع أنّ قسماً كبيراً من المقاتلين المنضمين إلى الميليشيات الشيعة اليوم كانوا مراهقين ورجالاً يافعين في تلك الفترة. وجيش صادق الصدر هذه المجتمعات بناء على مشاعره القومية العراقية القويّة، بالإضافة إلى خطابه المعادي للغرب وحتى لإيران.⁶

وعندما انهارت الدولة العراقية بعد العام 2003، ملأت شبكة التيار الصدري الواسعة الفراغ. وكان الصدر سبق أن أسس عنصراً مجتمعياً قوياً للتعبة الشيعية جمّع بين الحماس الديني وقومية عراقية ذات طابع مقاتل متمحور حول الشيعة. وبالإضافة إلى تأمين الصدر النصح والاستشارة للفقراء، أرسل موفدين إلى المناطق الشيعية العراقية كافة. ولتكلمة هذه الشبكة الدينية والثقافية الاجتماعية القائمة، أسس التيار الصدري رسمياً بعد العام 2003 وبقيادة مقتدى الصدر تنظيم جيش المهدي الذي حمل لاحقاً اسم سرايا السلام.

⁴ للاطلاع على المزيد من الدراسات حول الموضوع، راجع "Oliver Kaplan, "Nudging Armed Groups: How Civilians Transmit Norms of Protection," Stability: International Journal of Security & Development (December 2013), <http://dx.doi.org/10.5334/sta.cw>.

⁵ John Kifner, "After the War; Iraqi Refugees Tell U.S. Soldiers of Brutal Repression of Rebellion," New York Times, March 28, 1991, <http://www.nytimes.com/1991/03/28/world/after-the-war-iraqi-refugees-tell-us-soldiers-of-brutal-repression-of-rebellion.html>.

⁶ Nicholas Krohley, The Death of the Mehdi Army: The Rise, Fall, and Revival of Iraq's Most Powerful Militia (London: C Hurst & Co, 2015).

وحيثما احتاجت المجتمعات إلى الحماية والخدمات والقيادة تدخل التيار الصدري. فأنشأ التنظيم مكاتب وأقام دوريات محلية وأمن خدمات دينية واجتماعية لناخبيه في بغداد، ولا سيما في الأحياء الفقيرة في مدينة الصدر.

بروز الميليشيات

عقب انتهاء حرب 2003، سيطر تنظيمان ميليشياويان على العراق: منظمة بدر وجيش المهدي. وقد تأسس التنظيم الأول في خلال الحرب بين إيران والعراق وجند حينئذ مساجين حرب عراقيين واستمدّ الدعم من اللاجئين العراقيين الذين كانوا قد هربوا إلى إيران. وقاد هذا التنظيم في البداية مسؤولون من حرس الثورة الإسلامي الإيراني ليخضع بعد ذلك لقيادة عراقية. وبصفته الجناح العسكري السابق للمجلس الأعلى الإسلامي العراقي، استفاد أيضاً من عملية الدمج في النظام السياسي بعد العام 2003، وحتى أنه تعاون مع قوات التحالف. ولا يزال التنظيم يسيطر على أكبر مؤسسة عراقية، ألا وهي وزارة الداخلية والشرطة الاتحادية التي تضمّ 37 ألف شرطي. وبالتالي، تميّز بخبرة أوسع وانضباط أكبر مما تحلّى بهما تنظيم جيش المهدي.⁷

في المقابل، أفضى التيار الصدري وجناحه الميليشياوي، أي جيش المهدي، إلى سلسلة من الميليشيات غير المنضبطة وغير الخاضعة للمساءلة في المجتمع العراقي، إذ لم يكن التنظيم مهياً لتحمل مسؤولياته المتزايدة. ففيما كبرت صفوف جيش المهدي بالداعمين والمقاتلين في خلال الاحتلال الأمريكي، ولا سيما بعد اشتداد الصراع الطائفي والإحباط، أنهكت مسؤوليات الإدارة المحلية ومواجهته مع القوات المنافسة انضباطه وقدرته التنظيمية ووضعتهما قيد الاختبار. وعنّت الخلفية الاقتصادية الاجتماعية للقاعدة الصدرية أنّ أعضاء المنظمة أقلّ ميلاً (أو تاهلاً) للانخراط في الحكومة.

واحتشد التيار الصدري حول قيادة مقتدى الصدر، غير أنّ أسلوب عمله بقي لا مركزياً إلى حدّ بعيد. وكان التيار الصدري تنظيمياً شعبياً واسعاً تغيّرت معالمه في خلال فترة الاحتلال الأمريكي بسبب الفصائل الميليشياوية الشيعية المتمرسّة في المعارك والمستقلّة في داخل التنظيم التي ازداد حزمها وقّل وفاؤها تجاه القيادة الصدرية.⁸ وبعد الاشتباكات مع قوات التحالف والقوات المسلّحة العراقية، سنحت الفرصة لهذه الفصائل بأن تكتسب القواعد الداعمة الخاصّة بها على المستوى المحلي وتحصل على مواردها الخاصة وتجدر راعياً راعياً في

إيران. وأعطى هذا الوضع في النهاية القدرة لهذه المجموعات على اكتساب ما يكفي من الثقة والموارد للانشقاق عن التيار الصدري. وكان الوقع الأكبر لهذا الانشقاق في بغداد حيث القاعدة الناجية الأقوى للتيار الصدري وحيث خاضت الميليشيات الشيعية حرباً أهلية طائفية ضارية واسعة النطاق بعد تفجير ضريح الإمامين علي الهادي والحسن العسكري الذي يعتبر موقفاً مقدساً للشيعية في فبراير 2006.⁹ وقد التزم التيار سابقاً مع صادق الصدر، غير أنّ سقوط الدولة ونشوء الصراع الطائفي غيراً معالم السلطة في صفوف الطبقة الشيعية الدنيا، مطلقين في المجتمع العراقي بحلول العام 2007 عدداً من الميليشيات المستقلّة والمسلّحة والمتمرسّة في المعارك التي لم تعد تنصاع للقيادة الصدرية.

هويّات متعدّدة

برزت ميليشيات شيعية متنوّعة في مناسبات مختلفة، من بينها منظمة بدر، وهي الميليشيا العراقية الأقوى، إذ تقود عدداً من المقاتلين الناشطين على الجبهة يفوق العدد الذي تقوده أي ميليشيا أخرى. وهي تتسم بتعقيدات تحدّد الميليشيات الشيعية العراقية، فهي قوّة ميليشياوية مدمجة في الدولة العراقية لكنها قادرة على العمل بصورة مستقلّة، بالإضافة إلى أنها تتعامل مع المجتمع الدولي، فتتعاون عسكرياً مع الولايات المتحدة الأمريكية فيما تحافظ على علاقات متينة مع إيران.

في المقابل، يمكن وصف ميليشيات مثل عصائب أهل الحقّ وكتائب حزب الله وكتائب سيّد الشهداء وغيرها على أنّها جهات فاعلة انتهائية استغلّت الفوضى والفرار اللذين خلفهما انهيار النظام السابق. وبدعمٍ إيراني، لا تزال هذه المجموعات تتصدّى بقوّة للدولة العراقية والولايات المتحدة وقوّة التحالف. وترتكز تطوّعاتها الأيديولوجية على أساس التفوّق الشيعي ومحاربة الإمبريالية الغربية. وقد انشقت هذه المنظمات المذكورة عن الميليشيات الناشطة منذ فترة على الساحة. فعلى سبيل المثال، يخضع تنظيمها كتائب حزب الله وكتائب سيّد الشهداء كلاهما لقيادة عناصر سابقين من منظمة بدر. أمّا حركة عصائب أهل الحقّ، فهي فرع من التيار الصدري. وقد أسست إيران هذه المجموعات ومكّنتها ورسختها بعد العام 2003، بهدف استغلال هشاشة الدولة والصراع الطائفي. وعلى عكس منظمة بدر، ترفض هذه التنظيمات العمل مع الولايات المتحدة والتواصل معها بشكل قاطع.

⁷ مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في قوات الحشد الشعبي، في بغداد، في 22 يناير 2017.

⁸ Nicholas Krohley, The Death of the Mehdi Army: The Rise, Fall, and Revival of Iraq's Most Powerful Militia (London: C Hurst & Co, 2015); Marisa Cochrane, "The Fragmentation of the Sadrist Movement," Institute for the Study of War, January 2009, <http://www.understandingwar.org/report/fragmentation-sadrist-movement>.

⁹ أودى الصراع بحياة 34,452 شخصاً. وبحسب التقديرات، قتلت الميليشيات الشيعية ألف سنّي عربيّ في الشهر الواحد. راجع:

"U.N. Puts '06 Death Toll in Iraq Above 34,000," New York Times, January 16, 2007, <http://www.nytimes.com/2007/01/16/world/middleeast/16cnd-iraq.html>; Toby Dodge, "UK Iraq Inquiry Written Evidence," November 10, 2009, <http://www.iraqinquiry.org.uk/media/95834/2009-11-10-Submission-Dodge.pdf>.

وتؤكد كل ميليشيا عراقية تقريباً على شرعيتها وقاعدتها الشعبية، وتصف نفسها على أنها حركة اجتماعية ثقافية أو سياسية اجتماعية، رافضة أي تلميح بأنها ميليشيا. وبالفعل، أبدى المسؤولون العراقيون مخاوفهم بأن الميليشيات ستحوّل نفسها في نهاية المطاف إلى جهات فاعلة ثقافية اجتماعية ومكونات مندمجة في النظام ستستمرّ بإضعاف الدولة العراقية من الداخل. فمثلاً، في خلال العقد الماضي، صوّر تنظيم عصائب أهل الحق نفسه على أنه حركة اجتماعية ثقافية منخرطة في عملية بناء الدولة على الرغم من تاريخه العنيف،¹⁶ فقد قاد زعيمه قيس الخزعلي هجمات استهدفت فيها أهدافاً تابعة للغرب. وقد قاد الخزعلي، الذي اشتهر بأنه تلميذ صادق الصدر، التيار الصدري من مخبئها بعد أن اغتال النظام البعثي الصدر في العام 1991.¹⁷ ومنذ أن تأسس تنظيم عصائب أهل الحق في العام 2006، تطوّر ليصبح حركةً ناشئة لها أنشطتها الدينية والاجتماعية، ولتنظيم مكاتب في بغداد وفي الجنوب الشيعي، فضلاً عن أنه يصدر منشورات، ومتحالف مع أعضاء من الحوزة كجزء من مبادرة انفتاح فكري تطل شرائح مختلفة من السكان الشيعية.¹⁸ وقد اعتمدت المجموعة نزعةً معرفية بهدف نشر جاذبيتها الفكرية في مختلف طبقات المجتمع الشيعي.

وتؤكد ميليشيات كثيرة أنها تدعم مبادئ الصدر لمحاولة توثيق ادّعاءاتها في شرعيتها، لكنها فعلياً ستواجه صعوبة لتتطور وتصبح أكثر من مجرد عصابات إجرامية. في جميع الأحوال، يكمن التحدي أمام العراقيين وصانعي السياسات الدوليين في تقليص المساحة التي ستسمح في النهاية للعصابات الميليشياوية وكلاء إيران بالتحول إلى مكونات مندمجة في النظام السياسي العراقي. وعلاوة على خروج هذه الميليشيات عن القانون، تُعدّ رؤيتها لمستقبل العراق ونظرتها الأيديولوجية مشكّلة، إذ بإمكان الميليشيات المتحالفة مع إيران في قوّات الحشد الشعبي، مثل عصائب أهل الحق وكتائب حزب الله وكتائب سيّد الشهداء، أن توفّق وجودها وتشرعها، ومن الممكن حتّى أن تدّعي أنها حركات اجتماعية ثقافية. بصرف النظر عن ذلك، تفسح خطاباتها الطائفية العنيفة والشعبية، إلى جانب انتهاكاتها

ومن غير المفاجئ أنّ هذا العدد الكبير في المجموعات أدّى إلى نشوب اشتباكات وخصومات متعدّدة بين الميليشيات. فقد انتقد مقتدى الصدر، الذي وجّه صفوف حركته نحو القومية العراقية، الميليشيات المتحالفة مع إيران. فهاجم حركة عصائب أهل الحق لاهتمامها بالمصالح الإيرانية ونبذ زعمها بأنها جزء من التيار الصدري بسبب وفائها لإيران. وقماشياً مع الرؤية السياسية الحقيقية لوالد مقتدى الصدر ولأتباعه، أطلق داعموه شعارات مناهضة لإيران، وهاجموا مكاتب حزب الدعوة والمجلس الأعلى الإسلامي العراقي ومنظمة بدر حينما اجتمعوا للتظاهر ضدّ الحكومة في مايو 2016.¹⁰ وقد وحدّ التيار الصدري قواه مع خصمه القديم المجلس الأعلى الإسلامي العراقي، الذي يقود سرايا عاشوراء، لمهاجمة "الميليشيات الوقحة" التي لا تتصاع لأوامر قيادة الجيش العراقي.¹¹

ومنذ صدور فتوى آية الله السيستاني في يونيو 2014، اجتمعت ثلاث فئات من الميليشيات تحت راية قوّات الحشد الشعبي، وهي الميليشيات المتحالفة مع إيران والميليشيات المتحالفة مع الدولة والميليشيات "المتمّدة"، وهي تسمية يطلقها العراقيون على تنظيم سرايا السلام التابع للتيار الصدري لأنّه رفض أن يخضع للحكومة الاتحادية والمؤسسة الدينية ورفض أيضاً أن يخضع لإيران.¹² ولم تتأسس الميليشيات المتحالفة مع الدولة إلا بعد الفتوى التي أصدرها آية الله العظمى السيستاني في العام 2004. وتُعرف هذه الميليشيات بالمؤسسة الدينية أو "ميليشيات السيستاني"، وتديرها الأضرحة المقدّسة التي يسيطر عليها السيستاني، وتتضمّن كتائب الإمام علي ولواء علي الأكبر ولواء العباس. وللسيستاني أتباع كثر ضمن قوّات الحشد الشعبي، وهو يحظى بالاحترام لدى مختلف الشرائح الدينية والعرقية. وكما السيستاني، يعارض المقاتلون في هذه المجموعات تدخّل إيران بشؤون العراق.¹³ ويرفض قادتهم الاجتماع بمسؤولين ومستشارين إيرانيين إلا في حضور مسؤولين عراقيين يرفضون مثلهم الدعم العسكري الإيراني المباشر.¹⁴ ويبقى كلّ من تنظيمي سرايا عاشوراء وسرايا السلام على اتصال يوميّ وينسّقان عن كثب مع ميليشيات المؤسسة الدينية.¹⁵

10 Saif Hameed and Aref Mohammed, "Iraqi Cleric Sadr Asks Followers to Stop Attacks on Rivals' Offices," Reuters, June 11, 2016, <http://www.reuters.com/article/us-iraq-sadr-idUSKCN0YX0DX>. للمزيد من المعلومات عن العداوة بين منظمة بدر والتيار الصدري، راجع International Crisis Group, "Iraq's Civil War, The Sadrist and the Surge," February 7, 2008, <https://www.crisisgroup.org/middle-east-north-africa/gulf-and-arabian-peninsula/iraq/iraq-s-civil-war-sadrist-and-surge>.
11 Loveday Morris and Mustafa Salim, "Iraqi Shiite Cleric Recalls Militiamen from Fight Against Islamic State," Washington Post, February 17, 2016, https://www.washingtonpost.com/world/middle_east/iraqi-shiite-cleric-recalls-militiamen-from-fight-against-islamic-state/2015/02/17/9e85321a-b6bb-11e4-bc30-a4e75503948a_story.html?utm_term=.3ebd6de31397.
12 مقابلة أجراها المؤلف مع ممثل عن سرايا عاشوراء، في بغداد، في يناير 2017.
13 مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في قوّات الحشد الشعبي، في بغداد، في يناير 2017.
14 مقابلة أجراها المؤلف مع عضو في المؤسسة الدينية، في بغداد، في يناير 2017.
15 مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في المجلس الأعلى الإسلامي العراقي، في بغداد، في يناير 2017.
16 مقابلة أجراها المؤلف مع مستشار رئيس الوزراء العبادي، في بغداد، في يناير 2017؛ مقابلة أجراها المؤلف مع مستشار الرئيس العراقي، في بغداد، في يناير 2017؛
17 Ranj Alaaldin, "Iran's Interference is Nothing New," The Guardian, December 31 2009, <https://www.theguardian.com/commentisfree/2009/dec/31/iran-iraq-hostages-moore>.
18 مقابلة أجراها المؤلف مع ممثل عن عصائب أهل الحق، في لندن، في ديسمبر 2016؛ مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في قوّات الحشد الشعبي.
18 المرجع ذاته. راجع أيضاً انتشار عصائب أهل الحق على مواقع التواصل الاجتماعي.

لحقوق الإنسان وسجلها الحافل بأعمال العنف، فسح المجال أمام بروز مجموعات مسلحة مثل تنظيم داعش. وبعيداً عن أضواء المجتمع الدولي، تحرّض خطاباتها بانتظام على العنف.¹⁹ وتشكّل هذه الخطابات أساساً لهويتها، ممّا يصعب احتمال بنائها علاقات غير طائفية وتعددية مع مختلف شرائح المجتمع العراقي، وهذه العلاقات ضرورية لقطع الطريق أمام بروز مجموعات مثل تنظيم داعش.

التوصيات

احتواء الميليشيات بدل إزالتها

لا يمكن هزيمة الميليشيات الشيعية في العراق عسكرياً. فعلى الصعيد الدولي، الإرادة والموارد لخوض معارك عسكرية مع هذه الميليشيات غائبة، ممّا قد يوقع الدولة العراقية الهشّة تحت أعباء أكبر. ويقرّ العراقيون أن لا خيار أمامهم سوى أن يقبلوا بالميليشيات ويعملوا معها على الرغم من أنّها تنشط بصورة مستقلة عن الدولة وتحدّوها. وهم يؤمنون بقدرة المؤسسات القائمة والحركات الثقافية والاجتماعية على احتواء الميليشيات المؤذية. ويعتبر المسؤولون والميليشيات المتحالون مع الدولة على حدّ سواء أنّ القانون المعتمد مؤخراً حيال قوات الحشد الشعبي وسيلة لتنظيم وجوده.²⁰

بالإضافة إلى ذلك، يمكن أن تتغيّر التحالفات بين مختلف عناصر المجتمع الشيعي ومختلف الميليشيات الشيعية. فالمشكلة بالتالي مشكلة ديناميّة. ولوضع استراتيجية تواجه الميليشيات الشيعية في العراق، من الضروري أولاً وضع إطار جديد للتحدي لا باعتباره تحدياً في التعامل مع التنظيمات الوكيلية لإيران أو العصابات الإجرامية، بل تحدياً في إشراك الحركات المجتمعية الأساسية الشيعية. ويتطلّب احتواء سلوك الميليشيات الشيعية المدّمّر، بما فيه من انتهاكات لحقوق الإنسان ورفض الانصياع للحكومة أو للرقابة المدنية والخطابات الطائفية وصعوبات للدولة العراقية، تفاعلاً مع البيئة الثقافية والاجتماعية لهذه الميليشيات واستثماراً فيه.

ويجدر بأيّ استراتيجية توضع للتعامل مع الميليشيات الشيعية في العراق أن تأخذ أيضاً دور إيران في عين الاعتبار. فقد استأثرت إيران بمساحة عمل حرّة بالإجمال في العراق بعد انسحاب الجيش الأمريكي. وتؤدّي الميليشيات الشيعية الوكيلية لها دور "زرّ وعازل".

فهي زرّ يمكن أن تضغطه إيران لتواجه الجهات الفاعلة التي تهدّد مصالحها ولتخفيفها بشكل غير مباشر، وهي عازلٌ يسمح لها بأن تنأى بنفسها عن هذه الميليشيات الوكيلية متى انتهكت حقوق الإنسان وارتكبت أعمالاً إجرامية لئلا تُحمّل هي مسؤولية أفعال هذه الميليشيات. وعلى الرغم من ذلك، يبقى نفوذ إيران قابلاً للعكس.²¹

ولعلّ ما يثير السخرية أنّ أعداداً هائلة تابعة للقاعدة الصدرية التقليدية تحارب اليوم مع الميليشيات المتحالفة مع إيران، بعد أن جُيشت في السابق على أساس القيم القومية العراقية التي تبناها صادق الصدر والذي تحدّى بها إيران في عظاته وفي الوقت ذاته منح النظام البعثي أيديولوجية موحّدة بإمكانها أن تجيش الوعي العربي حيال المجتمع الشيعي العراقي، ضدّ ما سُمّي بالأيديولوجية الشيعية الفارسية الغريبة. بالإضافة إلى ذلك، عندما تزداد عدائية عناصر هذه المجموعات تجاه التدخل الإيراني، مثلما كان الوضع في الماضي، سيصبح قادة هذه الميليشيات أقلّ ميلاً لاقتراهم بإيران.

التركيز على الديناميّة المجتمعية بين الشيعة

منذ العام 2003 والعلاقة بين الميليشيات الشيعية العراقية علاقة خصومة شرسة.²² فعلى الرغم من أنّ مصطلح قوات الحشد الشعبي قد يشير إلى الميليشيات الشيعية كافة، لا يعكس الواقع هذا المفهوم على الإطلاق. لذلك، لم يفت الأوان بعد على الاستفادة من الاختلافات والانقسامات الكبيرة ضمن هذه التنظيمات من خلال تقوية الجهات الفاعلة التي تطغى على تحالفاتها وعلاقاتها وخطاباتها الأيديولوجية والسياسية قيمّ التعددية غير الطائفية والعمل معها. وحتى إن لم تصبح جميع هذه الجهات الفاعلة جزءاً من القوات المسلحة، فهي توفرّ فرصة التمتع بنفوذ لا يزال غائباً.

وتشكّل الميليشيات المتحالفة مع الدولة أكثرية المقاتلين في قوات الحشد الشعبي. وللحرص على ألاّ يغيّر هؤلاء المقاتلون ولاءهم ويدعمون المجموعات المتحالفة مع إيران، بإمكان الولايات المتحدة والمجتمع الدولي أن يؤمّنوا الدعم السياسي والماديّ للمؤسسة الدينية والميليشيات الداعمة للدولة. إذ سيمكّنها التدريب والدعم المناسب من أن يضاها انضباطها انضباطاً خصومها. وينبغي أن تُجهّز هذه المجموعات بما يلزم لتقارح العمل الدعائي الأكثر تقدماً الذي تتميز به نظيراتها المتحالفة مع إيران. وبتعزيز قدرة هذه المجموعات على الانخراط بفعالية أكبر في المجتمع العراقي، ستعزز قدرتها على نشر

"Shia Militia Leader Vows 'Revenge for Hussein' in Mosul Battle," Middle East Eye, October 14, 2016, <http://www.middleeasteye.net/news/shia-militia-leader-describes-campaign-liberate-mosul-revenge-hussein-1867945098>.

²⁰ مقابلة أجراها المؤلف مع مسؤول في المجلس الأعلى الإسلامي العراقي في بغداد.

Ranj Alaaldin, "Iran's Weak Grip: How Much Control Does Tehran Have Over Shia Militias in Iraq?" Foreign Affairs, February 11, 2016, <https://www.foreignaffairs.com/articles/iran/2016-02-11/irans-weak-grip>.

John F. Burns, "Precarious Cease-Fire in Amara Holds," New York Times, October 22, 2006, <http://www.nytimes.com/2006/10/22/world/middleeast/22iraq.html>; "Hizb-Allah al-Iraqi yaqtahim mraan lil-majlis al'aelaa fi albasra" [Iraqi Hizbollah Breaks into Supreme Council in al-Basra], al-Arabiya, May 11, 2015, <http://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world/iraq/2015/05/11.html>.

حزب الله العراقي يقتحم مقرّ للمجلس الأعلى في البصرة.

عناصر دافعة محتملة لتحقيق الاستقرار، على الرغم من أنها تتمتع باستقلالية عن الطبقة السياسية الفاسدة ولها أتباع أوفياء، مما قد يفيد في مكافحة التحارب.

تمكين المجتمع المدني

يتمتع المجتمع المدني في العراق بقدرة على مساءلة السياسيين والمليشيات وتأسيس بيئة تسمح بالتغيير. وفي الوضع الراهن، أبدى المجتمع المدني في العراق فعالية في تحييش أعداد كبيرة من السكان للتظاهر ضد الحكومة، لكن يمكن القول إنه أيضاً يعاني قلة تنظيم وعدم فعالية في ما يتعلق بالتأثير في السياسة العامة والمساءلة. إذ تواجه الجهات الفاعلة في المجتمع المدني، باستثناء تلك المنضوية تحت لواء الأحزاب السياسية أو التابعة لشبكات أُسرية أو دينية، تدخلاً سياسياً وتعرض للتخويف وتفتقر إلى القدرات الكافية لجمع التبرعات المالية.

وبإمكان المنظمات غير الحكومية والمنظمات الإنسانية وغيرها من الجهات الفاعلة في المجتمع المدني في العراق أن تحت المبادرات المسلحة على احترام حقوق الإنسان وأتباع القوانين الدولية الأساسية.²⁵ وبإمكان الولايات المتحدة أن تستخدم نفوذها الدولي للحرص على أن تمكّن الموارد الدولية للمنظمات غير الحكومية والمنظمات الخيرية وغيرها من مجموعات المجتمع المدني المحلية. فالمنظمات العراقية لا تحظى بالدعم المالي الذي تتمتع به المنظمات الدولية، وهي تشتكي من تلقيها مساعدة رمزية وليس فعالة.²⁶

مع ذلك، للمنظمات الدولية تطلّبات مشروعة، مثل تدخل الحكومة وعدم فعالية التنفيذ. لكن فرض اشتراطات ومعايير قد يساعد على إدارة المساعدة العتيدة لحكومة بغداد. غير أن ذلك لن يهدئ الهواجس المتعلقة بالأمن. من هذا المنطلق، على المجتمع الدولي أن يفكر في ترتيبات خاصة تحمي المنظمات الدولية عبر مزيج من القوات الأمنية المحلية والدولية، على غرار الترتيبات التي تقدّم لشركات النفط الدولية، ما سيعزّز التنسيق بين المنظمات الدولية والمحلية.

التعبئة الدينية

يشكّل الدور الذي يؤدّيه الدين وجهاً أساسياً في التعبئة السياسية الشيعية. فعلى مرّ التاريخ ارتبط التحرك الناشط الشيعي في العراق

خطابها التوافقي والقومي العراقي وعلى الاستفادة من رمزية آية الله السيستاني العظيمة والواسعة النطاق. وللمجموعات الخصمة المتحالفة مع إيران استراتيجية تمكّنها من الاستئثار بمساحة ثقافية تضاهي تلك التي لدى المؤسسات العراقية.²³ فإذا خلت الساحة أمام هذه الفصائل المتحالفة مع إيران، ستمكّن من استخدام القوتين السياسية والرمزية اللتين تتحلّى بهما قوّات الحشد الشعبي في سبيل قبوله نسيج المجتمع العراقي.

على نحو مماثل، للتيار الصدري تاريخ عنيّف مع الولايات المتحدة، غير أن مقتضى الصدر منفتح على التواصل مع المجتمع الدولي. وهو يبقى على علاقاتٍ وطيدة مع جهات أساسية حليفة للأمريكيين في العالم العربي ترى في تياره سداً أمام النفوذ الإيراني المتزايد في العراق. ويشكّل حالياً هذا التيار ثقلًا موازياً للمجموعات المتحالفة مع إيران، لكنّه يخشى أن يخسر الدعم أمام تنظيمات مثل عصاب أهل الحق. مع ذلك، يفتقر التيار الصدري للفكر الاستراتيجي وإمكانات الحوكمة الجيدة والقدرة على إنشاء تحالفات مع جهات فاعلة إصلاحية قد تستطيع معاً أن تحوّل الاعتراضات الأخيرة في العراق إلى إصلاحات في السياسة العامة.²⁴ ومن شأن مساعدة التيار الصدري من خلال مبادرات لبناء قدراته أن يعالج نقاط الضعف هذه ومن الممكن أن يُستخدم أيضاً لمواجهة الجهات الفاعلة المؤذية، مع دفع التيار إلى القبول بالقوانين الدولية وحقوق الإنسان الأساسية.

تحديد وسطاء التغيير وتمكينهم

يشكّل تمكين قادة المجتمع والاستثمار في سياسات العراق الشعبية التصاعديّة عائفاً أمام قدرة النخب الفاسدة والمجموعات المقاتلة لكي تستخدم المجتمع المدني كشبكات رعاية. فبدلاً من أن يوجّه المجتمع الدولي موارده وطاقته نحو الطبقة السياسية ومؤسسات الدولة الضعيفة، ينبغي عليه أن يعي أنّ الصراع من أجل العراق يبقى متجذراً ضمن الشبكات الشيعية في المجتمع. وتتألف هذه الشبكات مجتمعةً من اقتصادات تُقدّر بمئات ملايين الدولارات، وهي تدير مشاريع بصورة مستقلة عن الدولة، بالإضافة إلى أنها تضمّ شبكة واسعة من المؤسسات والمنظمات الخيرية التي تتلقّى مساعدات مالية من خلال تبرعات دينية من حول العالم. ومنذ بروز تنظيم داعش وما تبعه من أزمات إنسانية، استخدمت هذه المؤسسات مركزها وثروتها لتؤمن ملجأً للنازحين ضمن البلاد، بمن فيهم أشخاص من مختلف الأقليات الدينية والعرقية في العراق. ولا يرى صانعو السياسات في تلك الجهات الفاعلة الشعبية المجتمعية

Hassan al-Shanoun, "Shiite Militias Prepare for Education 'Revolution' in Iraq," al-Monitor, April 17, 2017, <http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2017/04/university-iraq-cultural-revolution-pmu.html#ixzz4emphYkOg>.

Ranj Alaaldin, "Could Muqtada al-Sadr be the Best Hope for Iraq and the Region?" Markaz (blog), Brookings Institution, August 21, 2017, <https://www.brookings.edu/blog/markaz/2017/08/21/could-muqtada-al-sadr-be-the-best-hope-for-iraq-and-the-region/>. Kaplan, "Nudging Armed Groups."²⁵

IRIN, "Local NGOs Appeal for More Financial Support," July 24, 2008, <http://www.irinnews.org/news/2008/07/24/local-ngos-appeal-more-financial-support>.

ارتباطاً وثيقاً بالمؤسسة الدينية الشيعية. وتعتمد الميليشيات الشيعية على رجال الدين لتثبيت شرعيتها، وسعت إلى توحيد خطاباتها وتوجيهها الفكري مع تلك التي تنادي بها المدارس الدينية، إذ تسهّل المواعظ الدينية نشر الأهداف السياسية والاجتماعية. ولا تختلف النزاعات التي تقوم بين حوزتي النجف وكربلاء كثيراً عن الخلاف الظاهر بين سياسات بغداد أو في ساحة المعركة.

وتُعدّ الخيارات المتاحة للغرباء محدودةً في ما يتعلّق بمحاولة إحداث تغيير في النواحي الحساسة للتعبئة الدينية والفكر العقدي الشيعيين. على الرغم من ذلك، ينبغي على الولايات المتحدة أن تنخرط مع المجتمع الديني بالتنسيق مع حلفائها الدوليين. لذلك، ينبغي على الولايات المتحدة أن تنظر إلى التنظيم الديني الشيعي من ناحية التنمية المدنية. فلأوروبيين، ولا سيما بريطانيا، نفوذٌ أوسع في هذه المجتمعات ويُعتبرون فاعلين غرباء أقلّ عدائية.²⁷ وقد تستفيد الجهات الفاعلة الميليشياوية والدينية والعشيرية المعتدلة إذا أضاف المجتمع الدولي عنصراً دينياً إلى سياساته في العراق، بهدف أن يقدر الدعم السياسي والعسكري والاقتصادي التداخل والتفاعل بين السياسة والدين.

إعادة تنشيط المؤسسات العراقية

قد يوحي النقاش أعلاه بأنّ موجز السياسة هذا يدعو إلى اللامركزية وانتزاع السلطة من بغداد. بيد أنّ أيّ فكرة ترى أن الحلّ لمشاكل العراق هو اللامركزية هي نظرة خاطئة شائعة تبناها المسؤولون والمعلقون العراقيون والغربيون أيضاً. فكما أشار باحثون آخرون، تتطلب اللامركزية حكومة قوية قادرة على تطبيق اللامركزية بشكل منظم ومفيد.²⁸ وعلى الجهات الفاعلة المحلية التي تدير مسألة الحكومة أن تحظى بالشرعية والصفة الإدارية اللازمين.

ولا تغفل التوصيات والتحليل أعلاه تأثير المؤسسات العراقية. إذ تبقى الحكومة العراقية الجهة الفاعلة الوحيدة القادرة على رسم معالم نظامي الدولة الدستوري والقانوني. وتؤمن جميع الميليشيات الشيعية أنّ مستقبلها السياسي يكمن في كنف الدولة العراقية. وهي لعلها تسعى إلى استخدام الدولة والمنافع التي ترافق السيادة والاعتراف الدولي. ولا مفرّ من أن ترسم تلك الجهات الفاعلة معالم الدولة وفقاً لقيمها السياسية والأيدولوجية، فتؤسس بالتالي لنظام سياسي جديد. وفي الوضع الحالي، تفتقر الحكومة الاتحادية للمصداقية والقدرة على تحقيق استقرار العراق.

وفيما تضع الميليشيات الشيعية الانتخابات المحلية والوطنية المقبلة نصب عينها، سيأفل نجمها على الساحة السياسية إذا فشلت في تأمين متطلبات الأمن والحوكمة أو إذا مال العراقيون إلى دعم رئيس الوزراء العبادي الذي كسب المزيد من الدعم بفضل حملة تحرير الموصل. وحينما تفشل الميليشيات الشيعية، على الدولة العراقية أن تحلّ محلّها عبر تأمين قوّة أمنية فعّالة ومنظمة وتقديم الخدمات الأساسية والقدرة على إنعاش اقتصاد الدولة.

التصدّي لعودة المالكي

سيعاني العراق إذا استبدل رئيس الوزراء العبادي بالجنح الذي يرأسه المالكي في حزب الدعوة الإسلامية الذي هو حزب رئيس الوزراء الحالي أيضاً. فقد سعى هذا الجناح المتحالف بشدّة مع إيران إلى تقويض حكم العبادي منذ العام 2014. ويُعزى انهيار الجيش في ذلك العام وسوء إدارته إلى فترة استلام المالكي السلطة. تجدر الإشارة إلى أنّ رئيس الوزراء السابق حليفاً مقرباً من حركة عصائب أهل الحق وتحالف معها في الانتخابات البرلمانية للعام 2014. وعندما انهار الجيش مباشرة عقب سقوط الموصل في العام 2013، مكّن المالكي حركة عصائب أهل الحق، ووجه الجهات الوكيلّة لإيران، مثل تنظيم كتائب حزب الله، وأناطها بمهمة المحافظة على أمن بغداد. وأدّى ذلك إلى تصعيد في الهجمات الطائفية، وزاد من حدّة التوترات الطائفية في مرحلة حرجة بالنسبة إلى الدولة.²⁹ وبسبب سمعة المالكي المطلّخة الناجمة عن مقاربتة الطائفية والاستقطابية والمتسلّطة للحكومة، ينبغي على الطبقة الدينية والسياسية الشيعية أن تتصدّى بشدّة لعودته رئيساً للوزراء أو عودة أيّ من أفراد جناحه في حزب الدعوة الإسلامية أو حلفائه من بين الفصائل الميليشياوية المتحالفة مع إيران.

الحضور يعني السُلطة

شغلت الميليشيات الشيعية المتحالفة مع إيران بال العراقيين بسبب طموحاتها بأن تقتدي بالأجهزة الأمنية الإيرانية.³⁰ ومع أنّ للولايات المتحدة نفوذاً عسكرياً محدوداً على الأرض في العراق، ما زالت قادرة على أن تولّد بعض النفوذ. لذلك يجدر بالميليشيات في العراق المتحالفة مع إيران وبرعاتها الإيرانيين أن يأخذوا موقف الولايات المتحدة في الحسبان مع تقدّمهم في العراق، إذ لا ينبغي التقليل من الأهمية الرمزية والسياسية للحضور الأمريكي في العراق والمنطقة، فهذا الحضور يطمئن حلفاءها والفصائل المتحالفة مع الغرب في العراق وكل الجهات

²⁷ مقابلة أجراها المؤلف مع الرئيس معصوم؛ مقابلة أجراها المؤلف مع عضو في المؤسسة الدينية الشيعية، في بغداد، في 22 يناير 2017.

²⁸ Kenneth M. Pollack, "Iraq and a Policy Proposal for the Next Administration," Brookings Institution, September 29, 2016,

<https://www.brookings.edu/research/iraq-a-policy-proposal-for-the-next-administration/>.

²⁹ Human Rights Watch, "Iraq: Pro-Government Militias' Trail of Death," July 31 2014,

<https://www.hrw.org/news/2014/07/31/iraq-pro-government-militias-trail-death>.

³⁰ Hamza Hendawi and Qassim Abdul-Zahra, "Fears in Iraqi Government Army over Shiite Militias' Power," Military Times, March 21, 2016,

<http://www.militarytimes.com/story/military/2016/03/21/fears-iraqi-government-army-over-shiite-militias-power/82101226/>.

المعادية للتدخل الإيراني. وإلى جانب المحافظة على الانتشار العسكري الغربي في العراق، ينبغي الاستثمار بشكل أكبر في الفرقة الذهبية، أي جهاز مكافحة الإرهاب في القوات الخاصة العراقية. فقد لقيت هذه القوات الثناء الكبير لدى مختلف الأوساط الدينية والعرقية في العراق. وغدا مقاتلوها الذين يبلغ عددهم 10 آلاف عنصر آتين من مجتمعات كردية وعربية سنية وشيعية، رمزاً للوحدة الوطنية. وقد يفضي استثمار أكبر في هذه القوات وحدة وطنية ويخفف من حدة التوترات العرقية والطائفية على المدى الطويل، لأنه يقوي القوات الداعمة للدولة فيما يُضعف خصومها المتحالفة مع إيران.³¹ وسيتمكّن حضور عسكري أمريكي معزّز، مترافق مع دعم تقني وعسكري ومادي، من تحدي إسقاط القوى الإيراني في العراق واستغلال هذا الإسقاط خوف الشيعة من بروز تنظيم داعش من جديد.

الخاتمة

حدّد موجز السياسة هذا السياسات التي تهدف إلى مساعدة العراقيين على مساعدة أنفسهم. فعبر نقل التركيز نحو حوكمة أساسية شعبية وبناء القدرات، تطرّق الموجز إلى الطرق التي يمكن من خلالها احتواء الميليشيات الشيعية والحد من تأثير المجموعات المسلحة. وينبغي على صانعي السياسات الأمريكيين والدوليين أن يركّزوا على الجهات الفاعلة التي تتصوّر في توجّهاها مؤسسات تعددية غير طائفية وتهدف إلى بنائها. وتشمل هذه الجهات الميليشيات الشيعية المتحالفة مع الدولة حتى لو حافظت في المستقبل القريب على بعض من الاستقلالية عن الدولة. فمع الدعم الدولي، يمكنها أن تضيق المساحة التي تنشط فيها نظيراتها المعادية لها. في المقابل، سيفضي عزل هذه الميليشيات وتهميشها ببساطة إلى المزيد من المشاكل والقليل من الحلول.

تستحقّ الدولة العراقية وحكم رئيس الوزراء العبادي التوافقي، إلى جانب الجهات الفاعلة الإصلاحية والمعتدلة الأخرى في الطبقة السياسية، دعماً أكبر. وقد يُعدّ خطأً فادحاً أن تحدّ الولايات المتحدة من دعمها للعراق، كما اقترح بعضهم في واشنطن.³²

إذ سواجه العراق في المستقبل المنظور تهديداً ثنائياً يأتيه من تنظيم داعش والميليشيات الشيعية المتحالفة مع إيران. وفيما تعلقوا أصوات غير راضية في واشنطن وتبرز حجج مشروعة حول عدم قدرة العراق على الاستفادة من الدماء والأموال الدولية المقدّمة له، من غير الضروري أن تسير الأمور على حالها. فلولايات المتحدة أصدقاء في الشرائح الدنيا والعليا يرغبون في إنشاء ثقافة مساءلة في عراق يحترم حقوق الإنسان والقوانين الدولية.

David Witty, "The Iraqi Counter Terrorism Service," Brookings Institution, March 16, 2015, ³¹ https://www.brookings.edu/wp-content/uploads/2016/06/David-Witty-Paper_Final_Web.pdf.
John Bolton, "America Needs a Post-ISIS Strategy," Wall Street Journal, June 28, 2017, ³² <https://www.wsj.com/articles/america-needs-a-post-isis-strategy-1498688109>.

نبذة عن مركز بروكنجز الدوحة

تأسس مركز بروكنجز الدوحة، التابع لمعهد بروكنجز في واشنطن العاصمة، في العام 2008. ويُعتبر المركز نافذة المعهد في المنطقة ويقدم بحوثاً وتحليلات مستقلة وعالية الجودة حول منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وسعيًا منه لتحقيق مهمته، يلتزم المركز بتقديم مشاريع وأبحاث ميدانية تتناول نقاشات السياسة الإقليمية والدولية، مركّزاً على إشراك شخصيات بارزة حكومية وإعلامية وأكاديمية ورجال أعمال وممثلين عن المجتمع المدني، بشأن أربعة مجالات أساسية:

- (I) العلاقات الدولية في الشرق الأوسط، مع التركيز على أهمية العلاقات بين دول المنطقة وكذلك العلاقات بين الشرق الأوسط والولايات المتحدة وآسيا.
- (II) الصراعات والتحويلات بعد الصراعات، بما في ذلك مسألة الأمن وعمليات السلام وإعادة الإعمار.
- (III) الاستراتيجيات الاقتصادية والمالية في دول الشرق الأوسط، بما في ذلك الجغرافيا السياسية واقتصاديات الطاقة.
- (IV) الحكم والإصلاح المؤسسي، بما في ذلك الديمقراطية والعلاقات بين الدول والمواطنين.

يشجّع مركز بروكنجز الدوحة، الذي يفتح المجال أمام كافة وجهات النظر مهما اختلفت، على التبادل القِيم للآراء بين منطقة الشرق الأوسط والمجتمع الدولي.

منذ تأسيسه، استضاف المركز عشرات الخبراء من مختلف دول العالم ونظّم عدداً كبيراً من الفعاليات، بما في ذلك مؤامد مستديرة ضمّت شخصيات رفيعة المستوى، وندوات السياسة، ومنتدى بروكنجز الدوحة للطاقة الذي يُعقد سنوياً. وبالإضافة إلى ذلك، قام المركز بنشر سلسلة من موجزات السياسة والأوراق التحليلية.

منشورات مركز بروكنجز الدوحة

2017

احتواء الميليشيات الشيعية: المعركة من أجل الاستقرار في العراق
موجز السياسة، رانج علاء الدين

حماية العمّال الهنود في الخليج: ما يمكن أن تفعله نيودلهي
موجز السياسة، كديرا بثياغودا

سياسات العدالة الانتقالية في السياقات السلطوية: الحالة المصرية
موجز السياسة، نهى أبو الذهب

تقييم تطوّر مقاربة الأردن في التعامل مع الإسلامية
دراسة تحليلية، بيفرلي ميلتون-إدواردز

إنعاش عملية إعادة إعمار غزة المتعثرة
موجز السياسة، سلطان بركات وفراس مصري

نحو إعادة ضبط العلاقات بين الاتحاد الأوروبي وشمال أفريقيا
موجز السياسة، عادل عبد الغفار

إلغاء طابع الأمانة في مكافحة الإرهاب في شبه جزيرة سيناء
موجز السياسة، سحر عزيز

ريادة الأعمال: محرّك لخلق فرص عمل ولتحقيق نمو شامل في العالم العربي
موجز السياسة، بسمة المومني

العلاقات بين الهند ودول مجلس التعاون الخليجي: فرصة استراتيجية لدلهي
دراسة تحليلية، كديرا بثياغودا

2016

المساواة والاقتصاد: لماذا يجب على العالم العربي توظيف المزيد من النساء
موجز السياسة، بسمة المومني

متعلمون ولكن عاطلون عن العمل: معضلة الشباب المصري
موجز السياسة، عادل عبدالغفار

طرق محفوفة بالمخاطر: عبور الطاقة في الشرق الأوسط
دراسة تحليلية، روبن ميلز

التنافس الجهادي: الدولة الإسلامية تتحدى تنظيم القاعدة
دراسة تحليلية، تشارلز ليستر